علينا الإعتراف بالإختلاف... وبناء الثقافة العراقيةالقادمة على هذا الأساس

حـوار صريـح مـع مثقفـين كـرد

الحوار، وحرية الكلام دون خشية أو خوف، والإفصاح عن الرأي، والاستماع إلى الآخر، والتعرف المتبادل الذي قد لا يقود إلى إتفاق، ولكنه بالتأكيد يقود إلى معرفة أعمق، هذه المعطيات هي التي تخلق المناخ الملائم لترشح قيم مشتركة، أو نقاط إتفاق، تؤسس للتجانس الثقافي، هذا التجانس الممهد للتقارب والإلتقاء في قضايا أكبر، أكثر التصاقا بالواقع ومحدداته، والمستقبل وتحدياته.

والحوار هو دائماً في الضد من الثرثرة واللغو، لأنه الاتفاق من الأطراف المشاركة على وجود مشكلة تستحق النقاش والجدل.

•محسن قوجان: هناك ثقافات عراقية.. وليس ثقافة عراقية.
•فاضل عمر: نحتاج إلى ثقافة التسامح والتعايش.. إذا أردنا الإبقاء على العراق
•عادل حسن: الثقافة العربية [العراقية] لا تكترث بالتعرف على الثقافة الكردية.

حوار: أحمد السعداوي

ولعل واحـدة من أكثر الممارسات غيابا، في عهد السلطة الاستبدادية البائد، هو لحوار الصريح بين الفئات المختلفة المكونة للمجتمع العراقي، وغياب الوسائل التي تجسد هذا الحوار وتنقله، مقابل استشراء الثرثرة واللغو الفارغ من قبل الصوت الأحادي للسلطة الاستبدادية. وما نحن بحاجة إليه الآن، بانتهاء عهد الصوت الواحد الذي يتحاور مع نفسه، هو فتح أبواب الكلام للجميع، وعدم مصادرة أي رأي أو تصور، وتبني أخلاقيات الحوار، فهو الطريق الوحيد لخلق أرضية "وعي مشترك"، ينبه الجميع للقضايا التي يجتمعون عليها، ويمنح نظرة أكثر واقعية للقضايا التي يفترقون فيها.

وإزاء قضايا كثيرة يجري التداول حولها في الساحة الثقافية العراقية الآن، يبدو صوت المثقف الكردي ملتبساً أو منمطاً بالخطاب السياسي الكردي الذي يحتل الأضواء. ولكن، ماذا يقول المثقفون الكرد خارج ما ينشر من آراء لبعضهم في الصحف الكردية البغدادية ذات التوجه السياسي، أو.. وهم هناك (هنا!) في محيطهم الثقافي الخاص داخل المدن الكردستانية؟ لجواب على هذا السؤال يتطلب الذهاب إلى كردستان أولاً، والقاء بالمثقفين الكرد ثانياً. وهذا ما حصل ففي بناية اتحاد أدباء دهوك، فتح لحوار مع جملة من المثقفين الكرد. وأثر بعضهم عدم المشاركة بسبب عدم إجادتهم للعربية، وكتفوا بالإنصات، بينما جرى الحوار فعلياً مع ثلاثة من مثقفي دهوك، هم الشاعر محسن قوجان، والكاتب والباحث الدكتور فاضل عمر، ونقيب فناني دهوك والقاص والسرحي عادل حسن:

المدى: بداية، لا أرغب في طرح أسئلة كثيرة، بقدر ما أريد إثارة موضوعات محددة، أتمنى أن يجري الحوار حولها.. وأحب أن نبدأ بمستقبل الثقافة العراقية.. من وجهة نظر كردية كيف يرى المثقفون الكرد هذا المستقبل.. من خلال المشاركة الكردية في عموم الثقافة الوطنية العراقية.. بعد التغير الذي حصل في الواقع السياسي؟

•محسن قوجان: من وجهة نظري الخاصة: أرى أننا إذا تخلينا عن العواطف، وفسحنا المجال للعقل والمنطق، نستطيع فهم واقعنا ونجد الحلول لمشاكلنا، أما لغة العواطف والشعارات فإنها تجعلنا ندور في حلقة مفرغة ولا نخرج منها أبداً، باعتقادي الشخصي ليس هناك ثقافة إنما مجموعة ثقافات. أنا أؤمن بالحوار وتلاقح الثقافات، وتلاقي للصالح. وإذا ما اقتنع الأخوان العرب [العراقيون] بالتعايش مع الكرد، فبالتأكيد سيكون هناك تلاقح وتزاوج ثقافي. لكن الإشكالية الأساسية [الثقافية] إننا لا نستطيع التفكير بمعزل عن التأريخ. التاريخ يعشش فينا.

والأخ الذي يريد أن أكون شريكه في الوطن والوطنية، عليه أن يفكر في الآخر [الكردي] من حيث هو، من حيث مصالحه، ومن حيث حرياته الطبيعية، ووجوده.

•د. فاضل عمر: إذا أردنا حقاً إبقاء هذا الكيان السياسي [العراق] فإننا نحتاج إلى ثقافة التسامح وثقافة التعايش بين التكوينات الثقافية المختلفة. أما أن تكون هناك ثقافة عراقية خالصة من الفاو إلى زاخو. فأنا أتفق مع الأخ قوجان إنها غير موجودة. أحياناً سادت في العراق ثقافات شمولية كالشيوعية، والإسلاميون حاولوا ذلك بنشر الثقافة الإسلامية كدين. لكن الكل فشلوا في خلق شيء اسمه ثقافة عراقية خالصة وموحدة. علينا الاعتراف بالاختلاف. وبناء الثقافة القادمة على هذا الاختلاف.

•عادل حسن: كنت أتمنى لو أن حوار أمثالنا للذي نقوم به الآن قد جرى في العشرينيات من القرن الماضي، لما وصلنا إلى الحال الذي نعيشه الآن. أنا أيضاً أرى فرقاً بين الجالين الثقافيين العربي والكردي في العراق.. الثقافة العربية ثقافة متسلطة في جانب كبير منها. أما الثقافة الكردية، فهي ثقافة مضطهدين. الإنسان الكردي عبر كل الظروف التي مر بها خلق له منظوراً معيناً للحياة. ولمصيره الشخصي ثقافة خاصة لا تكترث الثقافة العربية [العراقية] بالتعرف عليها.

المدى: أشكركم كثير أعلى الصراحة في الطرح. وأنا اتفق تماماً في الخطوط العامة لجمل الكلام الذي قيل. ولكن يتبادر هنا إلى ذهني

ثقافة المثقف وثقافة الحيط التقليدية. المثقف يفكك ثقافة الحيط ويعيد تنظيمها داخل فضاء علاقات أوسع. العراق متعدد الثقافات تبعاً لتعدد المرجعيات الاجتماعية والدينية العرقية.

وأي دعوة لثقافة واحدة.. هي عودة إلى العهد السابق وثقافته الشوفينية.

لا أعتقد أننا سنختلف في هذه القضية، ولكني أتساءل عن التنافذ الثقافي، فأوربا مثلاً رغم كل التمايزات العرقية واللغوية بين مجتمعاتها. استطاعت تشكيل ثقافة، يمكن للناظر إليها من لخارج أن يدعي إنها ثقافة متجانسة وموحدة. ثقافة أوربية. ثقافة لم تصنع بأمر أو قرار سلطوي أو أيديولوجيا مفروضة..

هناك إمكانية - كما أرى - بالاختيار الحر للمثقف الكردي والمثقف العربي في العراق. لإيجاد ثقافة عراقية. ثقافة لا تنتصر لثقافة على أخرى. وإنما هي عبارة عن فضاء تنافذي لكل المكونات.. تتيح للناظر الخارجي أن يقول أن أصحابها متحاورون بشكل جيد ومتفاهمون.

وأنهم يصنعون، أو يسعون لصناعة، ثقافة مشتركة. أخيراً أتساءل.. ما هو الفاصل بين سلطة المثقف أو خطابه، وخطاب السياسي وسلطته، من وجهة نظر المثقفين الكرد؟

•محسن قوجان: الثقافة نتاج فكري للمثقف، والمثقف نتاج مجموعة من العوامل، فكرية واجتماعية وحضارية وتربوية. من ناحية المثقف الكردي، أثر عامل الأضطهاد القومي، وتوقه إلى التحرر، في جعل أسلوب تفكيره يتفق مع أسلوب تفكير السياسي، إلى حد بعيد، رغم أن المثقف الكردي يذهب في العادة إلى حدود أبعد، فتجعله متشرداً أكثر.

أما قضية سلطة المثقف، فهذا يعتمد على نوع النظام والبنية الاجتماعية التي ستتركب. إذا ما كان هناك مستقبلاً شيء من الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وقيام مجتمع مدني أتصور أن مشاركة المثقف والسياسي في السلطة ستتكافأ. لأن المثقف في مناخ كهذا سيصبح مدير لحوار الاجتماعي. بحيث يغدو المجتمع مؤشر أي السياسة، كما هي السياسة مؤشرة في المجتمع.

•د. فاضل عمر: طرحت في كلامك موضوعين، سلطة المثقف، وموضوع المشترك الثقافي الأوربي. قناعتي، أن أوربا رغم كل اختلافاتها القومية العرقية وغيرها، لكنها نتاج جذر ثالث، الذي بني عليه النظام البعثي، أفسح المجال وسهل بطريقة أو بأخرى استعمال الأسلحة الكيمياوية ضد البشر، ونتائج ثقافة السلطة هذه معروفة وتأثر بها جميع العراقيين.

نأتي إلى موضوع سلطة المثقف، هل للمثقفين العراقيين سلطة؟ قناعتي.. لا توجد مثل هذه السلطة، لامجال تأثير للمثقف، أو فلنقل أنه مجال محدد في العراق، احتمال.. رئيس عشيرة معينة، له تأثير أكبر على عقول الناس، أكثر من تأثير مثقف بحجم علي الوردي. والسياسيون مؤهلون أكثر للسيطرة على الشارع العراقي، والمثقف سيأتي في المرتبة الثانية بعد السياسي، والسياسي هنا لا أعني به المنتظم في حزب سياسي فقط، يمكن أن يكون رئيس عشيرة أو رجل دين. المثقف المتنور لا يستطيع المجاهرة بما يزعزع الثوابت التقليدية لدى إنسان الشارع، لأنه سيفقد الشارع إذا فعل، وإذا لم يفعل سيظل واحداً من المجموع. ولن يغير شيئاً، وفي كلا الأمرين المثقف هو الخاسر، لربما يبدو هذا الكلام متشائماً، ولكن هذا ما أراه.

عادل حسن: أنا أتفق مع الأخ فاضل في ما قاله، فنحن نحاول بطريقة أو

ويمد أحدنا الآخر يد العون، ونتفاعل مع بعض.. أما إذا غيب حقي في الكلام.. أو تبرع أحد بالنطق باسمي.. فهذا إلغاء لأي تواصل ممكن، وأي بناء ثقافي نطمح إلى تكوينه.

•د. فاضل عمر: بالتأكيد.. البنية الثقافية القومية للكرد، مختلفة عن البنية الثقافية عند العرب أو الترك أو الفرس، ولكن هناك مشتركات، نستطيع تسميتها مشتركات شرق أوسطية.. لعل من أهمها الدين، والوقع الجيوبولوتيكي، وطبيعة الأنظمة الاقتصادية وعلاقاتها مع بعض في المنطقة. الثقافة الكردية بالأصل ثقافة تاريخية، هناك ثقافات أو أصول ومرجعيات ثقافية متراكمة تاريخياً لدى الكرد، ولكن الثقافة الكردية لا يمكن تمييزها بسهولة عن ثقافات المنطقة كتميز الثقافة الأوربية أو الهندية، أما في جانب آخر.. فالثقافة الشعبية والعادات والتقاليد.. تشكل بكل تأكيد، هوية ثقافية مميزة للكرد عن غيرهم.

ورغم توزع الكرد على خمس دول على الأقل، ومحاولة تذويب هويتهم وطمسها في مجتمعات هذه الدول.. فإن بقاءهم مرهون ببقاء البنية الثقافية الأساسية في المجتمع الكردي. التي تستطيع تسميتها بالبنية الثقافية الجبلية، وهي ثقافة شفهية، وعمرها في الكتابة لا يتجاوز الآن المئة سنة أو أكثر بقليل. سابقاً الثقافة الكردية كانت ثقافة شعرية، ولم يأتنا من القرن التاسع عشر مثلاً سوى القليل من النثر الكردي.

وحالياً.. اللغة الكردية.. تستوعب كل المجالات العلمية والثقافية الإنسانية.. وتحاول أن تكون إنسانية ومختلفة عن ما حولها.. ففي كل الأحوال لا يريد الأكراد الاندماج والذوبان مع المجاور المختلف بما يطمس الهوية الكردية في النهاية.

الكرد. كوجود اجتماعي وثقافي هم متميزون وذو خصوصية داخل بنية العراق. ويمكن أن يغنوا الثقافة العراقية (إذا شئنا) وهي ثقافة إذا اقامت على الإيمان بالإنسان مفرد، وليس ثقافة فرض الآراء والأفكار على الإنسان، يمكن أن تكون الثقافة الكردية جزء أمنها، أما إذا سرنا في الدرب نفسه الذي سلكناه سابقاً. فستبقى هذه الحدود والسدود إن لم نقل أنها ستزداد وتتعمق.

المدى- هذا الحوار لا يدعي الإحاطة بكل ما يمكن النقاش حوله مع المثقفين الكرد، لكنه محاولة لفتح منفذ للحوار، وفي المجال متسع لإغناءه وتعميقه من أجل بناء ثقافة رصينة تقوم أساساً على الأخذ والعطاء.

حوار: أحمد السعداوي

بأخرى الوصول إلى مستوى الثقافة

الثقافة كان نتيجة تاريخ طويل، وأهم عوامل نمو هذه الثقافة، أن المثقف الأوربي ناضل طويلاً ولم يتنازل عن أفكاره، بما أفضى في النهاية إلى انتصار طروحات الحداثة أما في منطقتنا، فالحداثة إلى الآن لم يتجذر وجودها ولم تكرس شيئاً على صعيد الواقع.

وبينما المثقف الأوربي يبادر ويبدأ بنفسه، فإن المثقف لدينا ينتظر المبادرة من جاره أو صديقه.. النظرة العملية وروح المبادرة مفقودة لدى المثقف الشرقي.

وهناك ظاهرة غريبة فيما يخص المثقف العراقي، حيث إنه يطمح بصورة أو بأخرى لأن يكون سياسياً، وينظر في السياسة، بالإضافة إلى أن معنى السياسة غير واضح لدى العراقي عموماً.. وغياب المجتمع السياسي.. هناك مجتمع قروي، والرأي في مثل هذا المجتمع لتخلف إذا كان رأياً جديداً ومختلفاً.. يعني الانتحار.

•المدى: سؤال أخير: تصوركم للثقافة الكردية في المرحلة القادمة.. إذا افترضنا قيام نظام ديمقراطي فيدرالي.. يحقق للطامح السياسية والاجتماعية لكل الفئات.

محسن قوجان: أنا من المؤمنين أن البشرية واحدة والثقافة الإنسانية واحدة. عندما تتضارب للصالح.. تتضارب الأفكار، إذا تقاربت للصالح.. تتقارب الأفكار والذهنيات وأسلوب التفكير.

في حال وجود.. أو تبني مجتمع يأخذ فيه كل الناس حقوقهم. ويعيشون في تواؤم وانسجام، أعتقد حينها أن لا مشكلة لدينا لننافشها، أما إذا تضاربت للصالح واستلبت حقوق فئة معينة لحساب الأخرى، فالتناحر والتفكك سيستمر.

•عادل حسن: نحن الآن الجالسون هنا في هذه الندوة عربياً وكرداً، لماذا هذا التواصل في الحوار.. الذي يمكن أن يستمر لوقت طويل، السبب الرئيس.. أن الطرف الآخر

قصة قصيرة

رئـــــة الارض

حسب الله يحيى

فوجئ بوجود القصر في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه محدقاً في النهر والاشجار سأل نفسه ان كان قد وقع في وهم، فربما كان للأعوام الخمسة التي ابتعد فيها.. قد اوقعته في النسيان الذي بات يعاني منه.. ولكي يتأكد من معرفته بتفاصيل المكان، سأل أول قادم التقاه:

-أليست هذه غابة السعادات؟

أجابه الرجل بثقة:

-نعم هي غابة السعادات..

- واين اشجارها.. اين النهر الذي يمر من وسطها؟

إبتسم الرجل، وانصرف على عجل.

راح يحدق بكل شيء يحيط به..

هذه اسوار عالية، لا يعرف ما هو الشيء الذي خلفها..

هذه شوارع منسقة.. هذه علامات تشير الى منع الوقوف منعاً باتاً.

هذه كاميرات منصوبة فوق كل عمود كهرباء.

هؤلاء... مدنيون وعسكريون يعلنون عن اسلحتهم الجاهزة للاستخدام الفوري.

خشي الالتفات، أمرد العسكري بالعبور الى الجانب الآخر من الطريق.

في الجانب الثاني للشارع، استطاع رؤية القصر وابعاده.. رصده مدني سأله:

«ماذا تفعل هنا؟

-انتزه.

«من قال لك ان هذا مكان نزهة..! أعطني هويتك.

-حدق المدني بالصورة الثبتة في الهوية، وحدق في وجهه، سأله ثانية:

«هذه الصورة لا تشبهك.

-انها صورتي.

«من يقول؟

-انا..

«من انت حتى تقول.. من يثبت صحة قولك؟

التحق مدني آخر وثلاثة من العسكريين.. قال أحدهم:

«خذوه.

-منذ نصف ساعة وانا ارصده يدور في هذا المكان.. ماذا تفعل هنا؟

اجاب المدني:

«يقول انه يتنزه!

-نعم.. إنني اتنزه.. أليست هذه غابة السعادات؟

سأله آخر:

-هل ترى انها غابة.. هل انت عاقل ام مجنون..؟

قبل ان يجيب، كان عسكري آخر يفتش بدقة كل ملابسه، ويصل الى الاماكن الحساسة في جسمه..

كانت اللمسات عنيفة وقاسية اشبه بالخناجر الطاعنة في جسده.

تقدم منه ضابط.. وحدق في وجهه وفي هويته:

-اتركوه يبدو انه مخبول.

وتوجه اليه:

-سنتركك هذه المرة.. وإياك ان تمر من هنا مرة ثانية.. هل سمعت؟

-نعم.. لن اشركك. نعم لن امر من هنا.. هذه ليست غابة السعادات.. انني في وهم. اعذرني دفع به الضابط الى زملاءه، دفعه هؤلاء، سقط، امسكوه كمن يمسك سلة مهملات.. إنصرف بسرعة.. لا نريد ان نرى وجهك في هذا المكان مرة اخرى.. هل سمعت؟ قالها الضابط بخشونة.

انصرف على عجل.. كانت اقدامه واطرافه ترتجف، حاول السيطرة على توازنه حاول ان يركض، حاول ان يصرخ.. الا ان كل محاولاته كانت خائبة..

كانت كل الانظار تتوجه اليه وهو يبتعد. المدنيون والعسكريون انتابهم قلق من ناحية وسخرية من ناحية اخرى.. الا ان الضابط طمأنهم قائلاً:

-يبدو انه من اهل الكهف.. يعرف بما جرى.. لا يعرف بكل التغييرات التي جرت على هذا المكان.. لا يعرف ان الاشجار قطعت والنهر قد تغير مجراه.

هز المدنيون والعسكريون رؤوسهم معلنين عن موافقتهم لكل ما قاله.. مضى الرجل غير مهتد الى طريق..

كان المطر خفيفاً فوق رأسه.. بحيث لم يحس بالقطرات.. حتى إذا ازدادت، زاد شعوره بالراحة، فقد وجد نفسه كمن يغتسل من إثم، او يتخلص من شيء علق به.. كان يريد ان يدرك، وان يعي جيداً انه قد إبتعد عن ذلك المكان، وعن تلك الأسئلة الصارمة.. وعن تلك الغابة السحرية التي لم تعد إلا ذكرى من ذكرياته الكثيرة التي يتوه بها رأسه الشبح بالمطر.

تسربت المياه إلى قدميه.. تسلل البرد اليه من أعلى ومن اسفل.. لكنه ظل يمشي دون ان يفكر بالبحث عن مكان يأويه من إنهمار المطر الغزير.. حتى إذا تعب من المشي، توقف عند سقيفة قائمة على مفترق طرق، وجلس هناك.. أخرج علبة سكائره وعلبة كبريته، فوجدهما قد تبللا.. رماهما بعيداً عنه.. أحس بالجوع والعطش والتعب.. حدق فيما حوله، وجد عدة أضوية هنا وهناك، أراد ان ينهض باتجاه البحث عن شيء يأكله.. غير ان العتمة كانت قد تسربت سريعاً. حدق في ساعته اليدوية، كانت الخامسة مساء، وحركة السيارات مدوية، وهي تحيط به.. ومع ذلك أخذته الغفوة.. وراح يحلم بأشياء كثيرة، ثم نسيها عندما إبتلعه صوت خشن:

-هيه، هذا ليس مكاناً تلقي فيه فضلاتك.

أجاب مرتبكاً وفي عينيه ينام النوم:

-عفواً.. عفواً، إنني متعب وقد نمت.

-من قال لك أن هذا المكان قد صار فندقاً.. إذهب من هنا.

كان يجر همومه وأحلامه وجوعه وعطشه وإرهاقه دفعة واحدة.. كان المطر قد توقف عند بائع متجول، تناول منه رغيفين من الخبز، لا يعرف ما بداخلهما. شرب قدحين من الشاي الأسود وعدة أقداح من الماء. أحس بقدر من الراحة والإطمئنان.. ورغبة متزايدة في النوم.

كان الزمن لا يعنيه. لم تكن ساعته.. سوى شيء من الأشياء التي لم تعد تعنيه أبداً.. فقد تساوت كل الامور عنده..

وجد نفسه معطلاً عن التفكير وعن الحياة.. فلا صلاح لما لايمكن اصلاحه.. كل شيء تبدد.. حتى الشجرة التي كان يتكئ على جذعها قطعت.. حتى النهر الذي كان يجد متعة في النظر الى امواجه، الى غسل يديه ورأسه في مائه.. حتى الهواء الذي كان يتنفسه في ذلك المكان.. صار مضاعاً.

هناك.. في ذلك المكان كان يحلو له ان يجلس ويتذكر لوحده.. وحده مع الطبيعة وجد مناخاً من الألفة، استسلم الى هذه الالفة لم يشغل نفسه بأحد لم يعد هناك احد جدير بتفكيره.

هناك عند النهر، وتحت شجرة التوت.. وقبيل المساء، يمكن له ان يتأمل ويلتقي ولده ويتحدث اليه، يقبله ويخاصمه لأنه يرفض الاقدام على مشروع زواج يتمناه له.

هناك.. في ذات المكان نفسه، يستطيع ان يستعيد كل شيء..

ضحكة ابنه، ملابسه، خطواته، شاربه الذي بدأ ينبت.. ومن ثم موته.

موته، موته، موته، يا للموت كم هو معتم.. يسأل:

- اماكان لرئة الارض ان تتنفس.. اماكان على الترب ان ينحو على شبابه، اماكان لقطرات دمه ان تنبت شقائق النعمان..؟

.. وظل يمشي في طرق معلومة ومجهولة، وقطرات المطر تتساقط وتتوقف.. الليل يبسط عتمته كما يشاء، دون ان يخجل من الانوار التي تحاول ان تبدد تلك العتمة.. التي يراها قاسية.. قاسية في جسد الارض التي تحتوي ابنه.. هذا الابن الذي افتدى والده.. وذهب بدلاً عنه عندما استدعوه للتطوع الالزامي في تنظيمات الجيش الشعبي.

لم يكن يريد لوالده ان يموت في حرب ليس له خيار في اشعالها..

مات بدلاً عنه.. وبدلاً عنه يجد نفسه يتنفس الان، ورئة الارض توقفت، سكن الهواء فيها الى الابد.

كان الندم يأكل فيه، يقاتله، يخنق عليه انفاسه.. اما كان عليه ان يذهب هو.. هو والأيدي شباب ابنه يهدر هكذا.. اماكان..؟

ظل يعاقب نفسه، يلومها، يقتل الانسان الذي فيها، يحاصر الرجل الخائف، المتردد، الكسول الذي كان.

حين رفض التطوع.. قالوا له: انه تطوع الزامي، واذا رفض عليه ان يوقع بالرفض، وعليه تقع تبعات هذا الرفض!

قال انه مريض، وحمل تقارير الطبية وادويته المتعددة اليهم.

رفضوا اكل تلك التقارير، قالوا انه حصل عليها بعلاقاته الخاصة مع الاطباء، وربما كان قد قدم اليهم الهدايا..

وفي احساسه العميق، كان يعرف انه رفض هذا لم يكن سببه المرض، ولا خوفه من الموت.. انما هو ادراكه التام ان الحرب.. ليست حربه هو، انه اتخذ لكي يكون وقود تلك الحرب!

ولئلا تكون الاسئلة صارمة، والعواقب وخيمة، اعلن! ابنه الوحيد عن تطوعه بديلاً عنه، وهو الاستاذ الجامعي الذي أعفي من قبل للتفرغ لمهامه التدريسية، الا ان الموضوع ما دام قد تحول الى بديل وإلى رغبة في التطوع، فلا بد ان يكون الانسان -الرقم، بديلاً لرقم آخر.

مضى الابن الى الحرب، تتبعه حسرات مكتومة من ابيه، وحزن عميق، من امه واخوته الست.

ومضت ايام وليال قاسية.. ظل فيها الجميع مؤرقاً.. وجلت قلوبهم، واحتبس البكاء في مآقيهم.. كأنما استبقوا الموت او استعدوا له، او انتظروا مجيئه.

حال وداع ابنهم البار بأبيه..

دق الموت على الباب الحديدي.. دقة واحدة.. هذا يكفي.. الباب الحديدي يذوب امام الموت، ثم يحس بالبرودة، يجف تماماً، يفنى.

استقبل الموت بهدوء، كأنما يعرف قدومه منذ الأمد، وتحولت كل الوجود اللبتة امام الجثة الى شيء غريب لا علاقة له بالحياة.. كانت كل الوجود قتيلة، مندفعة الى الموت.. الى الجثة كأمر طبيعي، كأنما يشكلها جسد الموت الواحد، والحزن الواحد.

خمس سنوات، ابتعد فيها عن حركة الحياة، والتم على روحه يقاتلها، يحبس وجودها عن الضوء.. كأنما ينتقم لذلك الابن الذي افتداه.. وعليه ان يوجه العقوبات الى نفسه، يمنع عنها الغذاء والدواء والهواء..

لكن خمس سنوات.. وكل السنوات اللاحقة، لن تكون بديلاً عن خسارته الفادحة بفقدان ابنه..

هكذا يؤكد لنفسه..

امامه التفكير بأمر ما.. أن يعرف، ويفكر في فعل شيء.. ان يرى الناس..

ان يلتقي الجرحى امثاله، ان يستعد للثأر من اولئك الذين قتلوا الحياة في الناس، وجعلوها وقوداً في نار اشعلوها بانفسهم.

عليه ان يتأمل هذا العالم المنخور بالحزن واللعنة والخوف والكذب و... و... عليه ان يتوقف عند الامواج، حتى يعرف اسرارها.

عليه ان ينتظر الشجر كيف يلقي ثماره.

عليه ان يكتشف حقيقة هذه الارض وكيف تتنفس برئة ميتة معتمة؟

كان طريقه يمتد، وقطرات المطر تجعله يقطر، والبرد في قدميه يحفزه للمشي حتى يشعر بالدفء والحركة معاً.

نهر يغير مجراه، شجر يقطع من جذوره.. غابة السعادات لم تعد موجودة، لم تعد هناك سعادات أبداً.. أبداً.

وهو يندفع متسائلاً عن ذلك القصر البديل عن الغابة والنهر وكل.. وكل السعادات.

هناك مدنيون وعسكريون وقصر.. قصر قصر مزهو.

هناك اشجار قتيلة، هناك روح النهر الدفون هناك روح ابنه، مدفونة في عمقه.. هناك رئة الأرض تتنفس الموت...

قال مخاطباً عذاباته المتجمعة:

- هل يمكن لرئة الارض ان تعلن عن وكر سجين اعماقها..؟

ومتلك اصر اره العميق:

- لابد ان يكون هذا.. لا بد ان يحصل.. لابد للأرض ان تتنفس.